تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

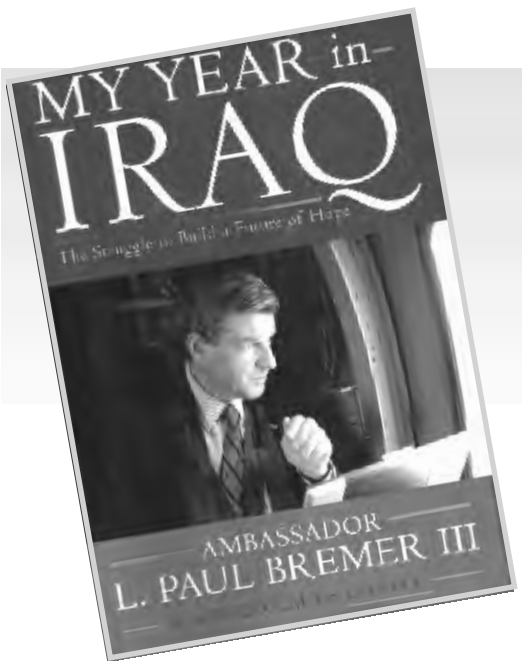

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الرابعة و العشرون)

فكّر للحظة، ومن ثمّ رفع سبابته ثانية، سائلاً، "ماذا لو أنّ المجلس أوصى بعملية لكتابة الدستور تتعارض مع فتوى السيستاني؟ أين سأكون أنا عندئذ؟"

أجبتُ بأن أفضل طريقة لضمان الالتزام بالفتوى الروحية هي أن يكون هو مشاركاً في المجلس.

"أوه، نعم. ولكن ماذا لو أنّ الغالبية في المجلس وافقت على عملية تتعارض مع الفتوى؟"

كل امرئ يُعجَب بصبر أيوب، لكن المسألة بدأت تأخذ معنىً خاصاً بالنسبة لي.

أشار سويرز بأن لا أحد ممن تحدّثنا إليه في المجلس كان يحبّذ إغفال الحاجة إلى مفوضية دستورية منتخبة.

أمضينا الساعة التالية بمناقشة رغبته بتعيين ابنه في المجلس بدلاً منه. لكننا لم نتزحزح عن موقفنا.

"إذن، سعادة السفير، أنت تصرّ على أن أخدم شخصياً في المجلس، أليس كذلك؟"

هنا خرج عازفو الكمان جميعهم، مرّةً أخرى أخيرة. كانت تلك بمثابة "نقطة انعطاف" في تاريخ العراق. يترتّب على زعماء مهمّين في المجتمع أن يشاركوا في مجلس الحكم لكي يساهموا بنجاحه. يجب أن لا يكرر قادة الشيعة الخطأ التراجيدي لعام ١٩٢٠، سيكون مجلس الحكم المكان الأفضل لممارسة تأثير على مجريات الأمور بما فيه مصلحة "شعبه."

بعدما أصغى إلي ملياً، انتقل بحرُ العلوم إلى موضوع التمثيل الضعيف، المزعوم، للأقاليم الشيعية في الجنوب. هل يمكننا أن نضيف ثلاثة أشخاص آخرين من هناك؟ قلنا إنّ الأوان قد فات. إننا ننوي الإعلان عن المجلس في اليوم التالي.

"ربما،" أضفتُ بشيء من الخبث، "يريد المجلس في مرحلة ما النظر في توسيع كيانه لاحقاً. بالطبع، ثمة أقاليم أخرى يمكن أن تشعر بأنها لم تُمثَّل كما يجب "...

"حسنٌ،" قال مبتسماً، "أنوي أن أثير هذه المسألة بطريقة ملحّة. وأيضاً،" كانت ابتسامته تزدادُ اتساعاً، "بما أنك أقنعتني للانضمام إلى المجلس، يجب أن أرى كيف يمكن أن نصبح متعادلين."

هكذا، وخلال منتصف الظهر من يوم السبت، ١٢ تموز، كان لدينا خمسة وعشرون عضواً في المجلس. ولكن، كانت توجد بعض المعوقات التي كان يجب أن نطوّعها.

كان طالباني قد غادر إلى موسكو، في طريقه إلى لندن "لإجراء محادثات." أمسكتُ بجون سويرز وطلبتُ منه أن يتصل بوزارة الخارجية فوراً، ويطلب منها أن لا يمنحوا الموافقة على عقد لقاءات رسمية في لندن مع طالباني، في اليوم التالي، بحيث يكون بمقدوره العودة.

ورغم هذا الإجراء، لم يجد طالباني طريقة للعودة في الوقت المناسب، لحضور مناسبة الإعلان عن المجلس، في الصباح التالي. وترتّب على بات كينيدي أن يستخدم بطاقة اعتماده، لشراء بطاقة طائرة من الدرجة الأولى لطالباني، كي يعود من أوروبا، صباح يوم الأحد.

وكان سيرجيو دي ميلو خارج البلاد أيضاً، في المملكة العربية السعودية. كنا نطلعُهُ، أنا وسويرز، بآخر مراحل التقدم المتعلقة بالمجلس. كنا قد أقنعنا سيرجيو أن يلعب دور رئيس المراسيم أثناء الإعلان عن المجلس. هذا سوف يساعد الرأي الدولي، ويقلّل إلى حد بعيد، أي اتهام بأن المجلس كيان خلقه التحالف.

بعد الاجتماع مع بحر العلوم، اتصلتُ بسرجيو، في المملكة العربية السعودية. كان سعيداً بالقائمة النهائية، وقال إنه سيستقلّ الطائرة ويعود صباح الأحد، على أمل أن يصل في الوقت المناسب، ويذيع بيان التشكيل بنفسه.

وخطر لي أن أعلم عدداً من المرشّحين، الذين لن يكونوا في المجلس. الأول كان رئيس الأساقفة ديللي، زعيم المسيحيين الكلدانيين. كانت الجماعة المسيحية العراقية، مثل كل الفئات الدينية الصغيرة في البلاد، مبعثرة ومتشظّية. كان هناك الكلدانيون، الذين كانوا، كما يبدو، يتفوّقون عدداً على الآشوريين، لكنهم ليسوا بنفس التنظيم، وكان نشاطهم السياسي أقل. ولكي تتوفر نسبة التمثيل في أصغر هيئة تمثيلية ممكنة، كانت لدينا مساحة في المجلس لمسيحي واحد فقط.

وقد اخترنا ممثلاً عن المسيحيين الآشوريين، وتوقّعنا أن يتسبّب هذا بعدم الرضى بين الكلدانيين. وكنا على حق، لأنه في تلك الليلة، لم يكن قلب رئيس الأساقفة يتدفّق بدم مسيحي. وبعد الشكوى من تركه جانباً، غادرنا ساخطا، مهدداً.

والثاني كان الباحث عن وراثة العرش، الشريف علي، الذي لم يكن سعيداً البتة جراء استثنائه من المجلس. "بل إنكم لم تستشيروني حول هذا المجلس،" قال شاكياً.

أجاب سويرز بكل صبر، "حاولت أن أراك خلال الأسابيع الأربعة الماضية. لكنك كنت خارج البلاد." علاوة على ذلك، كان زملاء مدّعي الملكية قد أوضحوا بأنّ الشريف علي أكبر من أن يخدم في المجلس. وقاعدتُنا هي أن يخدم فقط زعماء الصف الأول.

قلتُ أخيراً، "انظر، لا يأخذ التحالف موقفاً في هذا الاتجاه أو ذاك بخصوص الملكية. هذه قضية يقررها العراقيون. هذا المجلس سينطلق غداً. نأمل ونتوقع من العراقيين، ممن لديهم شعور بالمسؤولية، الوقوف إلى جانبه." وبتلك الجملة انتهى الاجتماع البارد جداً.

> "إن العمل معنا ليس كافياً. إذا كنتَ تريد أن تخدم شعبك ، يجب أن تكون في مجلس الحكم ، المكان الذي ستُتخذ فيه قرارات مهمّة ،" قلتُ له.ورحنا نفصّل الصلاحيات الكبيرة المنوطة بمجلس الحكم ، موضّحين أنّ اللجنة التحضيرية سوف يكون دورها محصوراً بتحديد العملية التي سيتمّ من خلالها كتابة الدستور. لكنها لن تقوم نفسها بكتابة الدستور. يجب أن يقرّر المجلس كيفية السير في العملية. لكنه لم يفهم ذلك ، وبدا أنّ هذا يُحدِثُ فرقاً.

وكان التنظيم الجمالي الذي اتفقنا عليه مع الأمم المتحدة، وبريطانيا، وأعضاء مجلس الحكم، يقضي بأن يجتمع خمس وعشرون عضواً في بناء لا يبعد كثيراً عن القصر، والذي كان بات كينديِ قد حوّله، كأنّما بمعجزة، إلى مكان أنيق. وكانت الخطة تقضي أيضاً أن تأتلف المجموعة بصفتها تشكّل مجلس الحكم. (وبات يُعرف هذا بالنسبة لنا، بشكل خال من أي تبجيل، خيار "التشكّل الخالي من العيوب".)

بعدئذ، يقوم المجلس، المكرّس ذاتياً، "بدعوة" الأمم المتحدة وبريطانيا، والولايات المتحدة، إلى اجتماع خاص، يطلعوننا من خلاله، على أنهم شكّلوا مجلس الحكم. بعد حفل الغداء، سنجتمع جميعاً في قاعة ضخمة، كي يقدم الأعضاء أنفسهم إلى الصحافة العالمية.

وصل سيرجيو إلى بغداد في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، وتوجّه مباشرةً إلى مكتبي. جلسنا أنا وهو وسويرز، نتبادل أطراف الحديث، إلى أن تلقينا، بعد خمس وأربعين دقيقة، اتصالاً بأنّ مجلس الحكم أصبح جاهزاً لاستقبالنا. ركبنا السيارة، أنا وسويرز، متوجهين إلى مركز الاجتماعات، وتركنا سيرجيو يصل إلى هناك بمفرده.

وقد اختير سماحة السيد بحر العلوم من قبل زملائه، والذي كان ورقتنا الأخيرة المستعصية، ليكون ناطقاً رسمياً باسم المجلس لهذا اليوم، احتراماً لكبر سنّه. (مع أن عدنان الباجه جي أكبر سناً من بحر العلوم، لكنه سنّي.)

وفيما جلس أعضاء مجلس الحكم حول طاولة مستديرة ضخمة، مغطّاة بنسيج أخضر، نوّه بحر العلوم بالطبيعة التاريخية لهذا اليوم. وأعلمنا أن المجلس قد أقرّ لتوه قرارين. الأول إلغاء جميع العطل المرتبطة بحزب البعث، بما في ذلك المناسبة القادمة في ١٧ تموز، ذكرى ثورة صدام. كما أعلنوا يوم التاسع من نيسان، "يوم التحرير"، ليكون عطلةً وطنية.

سأل بحر العلوم إن كنتُ أريد التكلّم. اقترحتُ أن يسمح أولاً لسيرجيو دي ميلو بالحديث، والذي قال كلمة قصيرة. لكن بحر العلوم أصرّ أن أتحدث، ووافقتُ بأن هذا اليوم تاريخي في حياة العراق والعراقيين.

"إن مجلس الحكم هو الخطوة الأولى في رحلة، تمشونها معاً، باتجاه هدفنا المشترك، وهو حكومة عراقية ديموقراطية، ذات صفة تمثيلية. إن المجلس،" ختمتُ بالقول، "يمتلك سلطة حقيقية، ويقف التحالف جاهزاً للمساعدة بأي شكل كان. ومعاً سوف ننجح."

وبعد غداء قصير، توجّهنا جميعاً إلى مركز الاجتماعات الذي يبعد حوالي مئتي ياردة. كنتُ أنا وسويرز وسيرجيو دي ميلو نجلس في الصف الأمامي من المدرج، بمواجهة المنصة. بعد مرور عشرين دقيقة، دخل الأعضاء الخمسة والعشرون، وأخذوا أماكنهم على صف من الكراسي، يأخذ شكل الهلال. خلفهم كانت علّقت خريطة بسيطة للعراق، وكلمات بالعربية تقول "مجلس الحكم".

هذه القطعة البسيطة على المنصّة كلّفت فريقي ساعات من العمل في اليوم الفائت، وفي وقت متأخر من ظهيرة يوم السبت، علمتُ بأنّ أحدهم في سلطة التحالف المؤقتة كان يخطط لوضع مجموعة من الأعلام الأمريكية والبريطانية والعراقية على المنصّة. منعتُها جميعاً، باستثناء علم عراقي وحيد، وذلك لكي أقلّل من دور التحالف، ولكي أجعل المنصة تبدو هادئة، وموقّرة. وكانت المشكلة أنه لا توجد نسخة متفق عليها للعلم العراقي. بعد حرب الخليج، ولكي يستميل الإسلاميين، أضاف صدام إلى العلم الملون بالأحمر والأبيض والأسود، عبارة "الله أكبر"، مكتوبة بخط يده. وكانت مشكلة المجلس هي معارضته استخدام علم صدام، غير أن الأعضاء الأكثر تديناً في المجلس لم يستطيعوا الاتفاق على نزع العبارة عن العلم. وبالتالي، لم يكن هناك عَلَم في نهاية المطاف. فقط خريطة للعراق الموحّد.

في المؤتمر الصحفي، قرأ بحر العلوم من "البيان السياسي" الذي كان قد أصدره مجلس الحكم في ذلك اليوم. وبعد أنْ نوه بأن المجلس قد "تشكّل من خلال مبادرة سياسية وطنية عراقية،" حدد البيان أهداف المجلس، وهي توفير الأمن للعراقيين، "ومحو نتائج الطغيان السياسي ...واجتثاث أيديولوجية البعث من المجتمع العراقي."

ويتعهّد المجلس، كما قال، إلى "وضع الأسس لنظام تعددي ديموقراطي، فيدرالي، يحترم حقوق الإنسان." وأضاف الشيخ الصغير الحجم ، بأن المجلس يمثّل كل مشارب الحياة العراقية، ويتطلع قدماً إلى مشاركة جميع العراقيين في تطوير الحياة السياسية للبلاد. وسوف يبدأ المجلس بعملية كتابة الدستور، التي ستقود إلى انتخابات برلمانية.

وبالرغم من المسؤولية الكلية للتحالف على العراق، اخترتُ أن لا أبدي أية ملاحظات خلال هذه المراسيم. واعتقدتُ أن إعطاء الفرصة لممثل الأمم المتحدة بالحديث سوف يساعد على تكريس شرعية مجلس الحكم. وبالتالي، بعد انتهاء بحر العلوم، تحدّث دي ميلو فقط، وباسم الأمم المتحدة، مرحباً بتشكيل مجلس الحكم.

ومن ثمّ جاء دور أسئلة وسائل الإعلام، وبدأت التسلية.

تحدّث أولاً مراسل هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، الذي سأل بطريقة ظريفة، "أليس صحيحاً" أنّ المجلس هو مجرد مخلوق صنعه الأمريكيون، ولا يملك أية سلطات، وبالتالي، هو عديم الفائدة؟

أمسك الطالباني بالميكروفون، وعنّف المراسل، متهماً إياه بأنه يمثّل "سادتنا الاستعماريين السابقين. لم يسبق لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)أن قالت الحقيقة عن العراق،" قال محذراً. ثم أردف طالباني، ممهداً لموضوعه، "إن المجلس هو الحكومة العراقية الأكثر تمثيلاً في تاريخ العراق." وانتقل إلى تعداد بعض صلاحياته، وأوحى، بطريقة لا تدعو للبس، بأن المراسل لا يعرف عما يتحدث عنه.

المراسل من تلفزيون قناة الجزيرة، المعادية دائماً للتحالف، ألقى خطاباً، في صيغة سؤال، وفق الصيغة نفسها تقريباً. واستتبع هذا سلسلة من ردات الفعل، من قبل أعضاء المجلس.

دحض الباجه جي، بكبرياء عظيم، الإشارة الضمنية بأنّ المجلس هو مجرد ألعوبة، واقترح بأن وسائل الإعلام العربية ستفعل خيراً إن هي كرست انتباهها للتغيرات الحقيقية الجارية في العراق.

ولكي لا يسبقه أحد، توجّه نصير الجادرجي، المحامي المسن، المنحدر من عائلة سنية تحظى باحترام كبير، بنقد لاذع إلى محطة الجزيرة، "أقول هذا لوسائل الإعلام العربية: توقفوا عن نصح العراقيين بمقاتلة الأمريكيين." وتعالى التصفيق والإطراء من الجمهور، بما في ذلك، كما لاحظنا، مجموعة من الصحفيين العراقيين.

وهذا ما دفع بحر العلوم للقيام عن كرسيه. "كانت التغطية التلفزيونية العربية للحرب وللتحرير أحادية الجانب، ومنحازة ضد العراقيين." قال بأعلى بصوته. "ولقد بدأت وسائل الإعلام هذه بتهديدنا منذ اليوم الأول للحرب، وحتى الآن." وحين عاد إلى مقعده، جلب انفعاله المزيد من التصفيق. هذا ألهمَ الشيخ الجنّي لأن ينهض ثانيةً.

"أنتم أيها الناس من تلفزيوني الجزيرة والعربية وغيرهما- لم تقوموا يوماً بتغطية المجازر التي ارتكبها صدام! لقد قتل مئات الآلاف من العراقيين! وقصفهم بالغاز! لماذا لم تُظهروا المقابر الجماعية إلى مشاهديكم؟" وارتفع التصفيق أكثر ما إن عاد بحر العلوم إلى كرسيه مرة أخرى.

ولكن الآن، وبعد أنْ تلقى تشجيعاً من الطالباني، الذي كان يجلس إلى جانبه، قفز بحر العلوم ثانيةً. بدا كأنه لا يريد أن يتوقّف.

"لا يفتأ الإعلام العربي يتحدّث عن أنّ صدام عائد. إنه لن يعود! إنه في مزبلة التاريخ! لن يعود أبداً." المزيد من التصفيق، وأخيراً غطس في مقعده، مزهواً بالنصر والرضى.

وهكذا، استمر الأمر لخمس وأربعين دقيقة أخرى. وراح أعضاء مجلس الحكم يواجهون كل سؤال (ومعظم الأسئلة كانت عدوانية) بمهارة وحماسة عاطفية. في نهاية الجلسة، نهضت امرأة من بين الحضور قالت إنها تمثل منظمة مغمورة، غير حكومية، وألقت بياناً مسهباً عن الإمبريالية الأمريكية، وحرب الإبادة الأمريكية ضد العراقيين، وما إلى ذلك.

...

جاء الآن دور إحدى العضوات الثلاث في المجلس، الدكتورة رجاء الخزاعي، وهي امرأة لطيفة، ترتدي شالاً، من مدينة في الجنوب اسمها الديوانية. كانت بطبعها خجولة، وغير واثقة من نفسها. ولكن ليس في هذا اليوم. قالت الدكتورة رجاء: "خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية، ساعدتُ الآلاف من النسوة العراقيات على إنجاب أطفالهن. الآن، ولأول مرة في تاريخ العراق الحديث، سيكون للنسوة العراقيات مكان في المجتمع. يشرفني أنني ألعبُ دوراً في المساعدة على إنجاب أمة عراقية جديدة اليوم."

كان أداؤها مذهلاً.

وكما قلتُ في رسالة صغيرة، بعثتُها إلى الرئيس بوش:

"كان نهار الأحد أكثر من يوم ولادة لحكومة عراقية مرتقبة. لقد ساعدت العملية في إظهار تعبيرات قوية للكرامة الوطنية العراقية."

يتبع

محمد بحر العلوم

د.احمد الجلبي

عدنان الباجه جي

رجاء الخزاعي